

النص الروائي

أ.محمد لزعر

قسم الفنون - جامعة سيدي بلعباس -

ليس من السهل بما كان التطرق لموضوع الرواية ذلك أنها تشبه البيت، منذ أول بيت بني على الأرض إلى يومنا هذا، بتطوره وتغييره وما زال في ذلك إلى حين غير معلوم .

تبدأ آن كارنينا تحفة تولستوي الروائية بالقول "أن حياة كل عائلة سعيدة تشبه حياة غيرها من العائلات السعيدة أما تاريخ كل عائلة بائسة فهو تاريخ له خصوصية متميزة ومختلفة"¹

فكل رواية كمثال عائلة بائسة، تغترف من منابع شتى بما يرضيها و يؤمن وجودها، فلم تدع الرواية مجالا إلا وخاضت فيه، فتراها من التاريخ و السياسة والمجتمع .. تستقي موضوعاتها بنهم تحسدها عليه مثيلاهما من الأجناس الأدبية.

كانت الرواية في زمن غير بعيد، محل ازدراء و قهْميش و لعل السبب يرجع في ذلك إلى موضوعاتها السوقية "التي ارتبطت باللهو والمجون والغرام والتسلية والفكاهة بالمقارنة مع الأجناس الأدبية السامية والنبيلة

كالشعر و الدراما ، و قد ساد هذا التصور السلبي إلى غاية القرن الثامن عشر بيد أن الرواية ستتبعث في القرن التاسع عشر² مع بروز مجموعة من الروائيين الكبار كإيميل زولا وبلزاك وتولوستوي، الذين أعادوا للرواية مكانتها المرموقة بين الأجناس الأدبية .

بدأت الرواية كأداة ضد النظام البرجوازي القائم على الإقطاع و الاستغلال و القهر، فراحتم تحليل الواقع الإنساني المتردي وتدينه وتنشر حياة عادلة مسالمة.

والرواية كجنس أدبي نشري ،تلتقي مع سائر الأجناس الأدبية الأخرى فهي أقرب ما تكون إلى الملحمة بيد أن الأخيرة تكتب شعرا " على الرغم من ظهور بعض الكتابات الروائية أو المفترضة كذلك مثل " الشهداء" للكاتب الفرنسي شاطو بريان الذي كتبها شعرا بيد أن ذلك لا ينبغي له أن يرقى إلى مستوى القاعدة³

إذا كانت الملحمة تعبر عن البطولات وتلاحم الموضوع مع الذات في تكامل وتناغم وسعادة فإن الرواية التي تعتمد السرد النثري وسيلة التعبير تركز أساسا على تشخيص التباعد الحاصل بين الذات والواقع وبالتالي بين الأنا والعالم.

وقد أقر "هيجل" بأن الرواية ملحمة أو ملحمة عالم بدون آلهة أفرزتها تناقضات المجتمع الرأسمالي وهي بذلك الجسر الذي يعمل على إحداث الوصل بين الإنسان والواقع من خلال تهذيب الإنسان وتغيير الواقع "4

تعالج الرواية واقع الإنسان البسيط ببساطة مكانه وزمانه فيما تختص الملحمة بكل ما هو عظيم.

وليس ببعيد عن هذا الطرح يذهب جورج لوكاش إلى اعتبار الرواية " ملحمة تراجيدية يتصارع فيها البطل مع الواقع وذلك بأشكال مختلفة نتج عنها ما يسمى بالبطل الإشكالي الذي يتردد بين الذات والواقع من أجل تثبيت القيم الأصلية التي يؤمن بها "5

ولفهم خلفيات هذا الرأي يجدر بنا العودة إلى الأصول النظرية التي أنتجته فلوكاتش بنى تصوره منطلقاً من جدلية الماركسية المادية في حلحلة وتفسير المجتمع الرأسمالي بجميع مشاكله مقترحاً على الملحمة بطلاً روائياً استقاه من روايات تولستوي الروسي حيث يقول " إن فن تولستوي عظيم وملحمي بصورة واقعية بعيدة جداً عن الجنس الروائي ، وهو يسعى بوصفه كذلك نحو تمثيل حياة مؤسسة على تشارك المشاعر بين البسطاء المرتبطين ارتباطاً حميماً بالطبيعة هذا التشارك الذي

يتلاءم مع إيقاع الطبيعة الكبير ، ويتحرك وفقا لتحركاتها
المضبوطة بالولادة والموت والذي يقصي كل ما يكون في
الأشكال الغريبة عن الطبيعة من صغار ، وانفصال وتفسخ
وتصلب "6

ومنه لعبت الرواية دورا أصيلا في مناهضة عبودية الإنسان في
الاجتماع الإقطاعي وذوبان إنسانيته في النظام الرأسمالي فراحت
تسرد من التاريخ ما تتطلع إليه من قيم كالحرية والبطولة

يقسم جورج لوكاتش الرواية إلى ثلاثة أصناف حسب بطلها
الإشكالي الذي يتردد بين الذات والواقع وهي:

1-رواية المثالية المجردة : بطلها مثالي ساذج حيث
يبدو فيها الواقع أكبر من الذات ويمثلها سيرفانتيس في روايته
" دونكيشوت "

2-الرواية السيكلوجية أو رومانسية الأوهام : بطلها
رومانسي ينطوي على ذاته ويتجاوز الواقع المتردي وبالتالي
فالذات تبدو أكبر من الواقع على مستوى المعرفة والمعيشة
وخير من يمثل هذه المرحلة الروائية فلوير في روايته " التريبة
العاطفية "

3-الرواية التعليمية أو الرواية التربوية بطلها
متصالح مع الواقع ومتكيف مع الموضوع وهنا تتساوى

الذات مع الواقع وتمثلها رواية " سنوات تعلم فلهم ما
يستر " لجوقته "7

أما لوسيان كولدمان فيرى أن الرواية " قصة بحث
عن قيم أصلية في عالم منحط يقوم به فرد منحط"8

والانحطاط هنا ليس بمعناه الخلقى وإنما هو فشل
الإنسان في تقييم الأشياء من حيث ماهيتها ودورها إلى
التركيز على قيمتها المادية .

استفاد لوسيان من دراسة سابقه للرواية أمثال
هيجل و لوكاتش و ماركس مما ساعده على بناء نظريته
للرواية على أساس " التشيؤ و البطل الإشكالي
والوساطة و التماثل والبنية الدالة والرؤية للعالم ونمط
الوعي... فاستخلص بأن الرواية الفردية " البيوغرافية"
في القرن التاسع عشر كانت تعبيراً عن الرأسمالية الفردية
، أما في بداية القرن العشرين فقد كانت الرواية
المونولوجية أو رواية الوعي تجسيدا للرأسمالية الشركات
أما الرواية الجديدة مع نتالي ساروت ، وكلود سيمون
وآلان روب كريبه وجان ريكاردو وميشال
بوتور... فقد كانت تعبيراً عن المجتمع التقني الآلي "9

وعليه فإن تشخيص الأدب الروائي هنا يمثل أساساً
إلى الواقع بتطوره وتغيره. ليس ببعيد عن هذا الرأي

ترى الناقدة الإنجليزية "كلارا ريف، أن " الرواية صورة
عن الحياة الواقعية وعادات الناس وعن العصر الذي
كتبت فيه "10

بناء على تقدم من تعريفات للرواية يمكن القول أن
منطق الرواية يتفق مع منطق الحياة فهي تختلف باختلاف
الأزمنة والأمكنة والنظم الاجتماعية لأن علاقة " الرواية
بالواقع حصرا هي التي تؤلف خصوصيتها "11

فلغة الرواية لغة نثرية متداولة تختلف عن لغة
الملحمة أو المسرحية القديمة، بطلها رجل عادي
موضوعها واقعي أو ممكن الوقوع .

فإذا ما أرادت الرواية أن تتمثل أخص خصائص
جنسها الأدبي ومقوماته، أن تنشئ لغة نثرية محايدة للواقع
والحياة ، متنوعة ومتباينة بتنوع المتكلمين بها ، وتباينهم
، لغة ريبية ونسبية وحوارية ، ضرورة عبر تعايشها
وحوارها مع غيرها من اللغات وهنا يكمن جوهر تناول
ميخائيل باختين للمسألة وهو يشدد على قضية التنوع
الكلامي في العمل الروائي غير أن التفكك الداخلي للغة
وتنوعها الكلامي الاجتماعي والتباين الفردي
للأصوات، شرط النشر الروائي الحقيقي "12

فالرواية عند باختين أدب شعبي يعبر عن فئة كبيرة في المجتمع لذلك ومن البديهي أن تختلف لغاتها ولهجاتها وأساليبها " فالتنوع الاجتماعي للغات و أحيانا للغات و الأصوات الفردية ، تنوعا منظما أدبيا أي أن الرواية تستند إلى تعدد الملفوظات الحوارية والتناصية"13

و يعتبر باختين التنوع الكلامي شرط النشر الروائي فهو الذي يميزه عن الشعر و الملحمة التي تكون ذات لغة رتيبة تمشي في خط مستقيم.

أما الرواية كجنس أدبي لم تعرف في تاريخ العرب ، قال الأصمعي "رويت أهلي أروي ريا ، و هو راو في قوم رواة، وهم الذين يأتون بالماء وهذا هو الأصل ثم تشبه به الذي يأتي القوم بعلم أو خبر فيرويه و كأنه أتاهم بما يرويه من ذلك"14

ويقال " رمى فلان شعرا ، إذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه ، و قال الجوهري رويت الحديث والشعر رواية فأنا راو "15

فالرواية في اللغة العربية تعني الملفوظ من الكلام المتناقل شفاهة كالأحاديث النبوية الشريفة التي غالبا ما يقال روي عن النبي صلى الله عليه و سلم و غير ذلك

من رواية الشعر و الحكايا و ذلك بإسناد الرواية
لمن حفظها ثم رواها .

و منه فإن المطالين بتأصيل الرواية في التراث
العربي القديم يستجيبون بهذه الدعوة إلى همومهم الوطنية
والقومية أكثر من التحكم إلى الدواعي العلمية النقدية
، وذلك عبر بحثهم الحثيث عن هذه الميزة المزعومة، ولا
ننكر أن العرب عرفوا القصص المقتزنة بالأحاجي
وكانت ترد في أشعارهم بعض الصور القصصية كتلك
التي كانت ترد في شعر عمر بن أبي ربيعة ولعلهم عرفوا
بعض القصص المطولة التي كانوا يروونها أولا ، ثم دونوا
بعضها ثانيا ، وهي التي كانوا يسمونها بأيام العرب (...)
وهناك القصص التي كانت تستخلص منها العبر التي
تضرب لبني الإنسان وعلى رأس ذلك كتاب كليله
ودمنة المشهور¹⁶

لا يجوز التغاضي عن الحقيقة أو إنكارها فالموروث
الشعبي القصصي العربي تضمن بعض أسس التعبير
الروائي " كما أن ذات الموروث وجد من الروائيين
العرب من استلهمه ووظفه وأفاد منه في رواياته ومن
هؤلاء جمال غيطاني في روايته (يزيني بركات) إميل
حبيبي في أبي النحس المتشائل ، يحيى الطاهر عبد الله في

حكايات للأمير حتى ينام... إلخ، والحق أن الرواية العربية نشأت في العصر الحديث فنا مقتبسا من الغرب أو متأثرا شديدا "17

إذا بعد ظهور الرواية كجنس أدبي في الغرب قبل حوالي ثلاثة قرون وانتقالها إلى المجتمع العربي متأخرا حوالي قرن ونصف أطلق مصطلح الرواية و التي يعرفها عبد المالك مرتاض على أنها "حديث محكي تحت شكل أدبي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من الأشكال والأصول كاللغة و الشخصيات والزمان والمكان والحدث بينهما طائفة من التقنيات كالسرد والوصف والحبكة والصراع وهي سيرة تشبه التركيب بالقياس إلى المستوى السينمائي بحيث تظهر هذه الشخصيات من أجل أن تتصارع طورا وتحاب طورا آخر لينتهي بها النص إلى نهاية مرسومة بدقة متناهية وعناية شديدة "18

الرواية أدب نشري في المقام الأول ذات لغة وسط فما هي بلغة الشعر وما هي بالمتداولة السوقية العامية) التي يرى بعض المبدعين أن توظيفها يحافظ على واقعية الحدث وصدقه وفيها مراعاة لحال المتلقي إذ كلماتها تحمل شحنات قوية ترجع في الأساس إلى استعمالها الشعبية ويبقى النقاش قائما في هل تكتب بالعامية أو

الفصحى ، في رسالة من جميل حمداوي إلى الناقد عبد الحميد عقار يتناول هذه القضية فيقول " هناك ردود مختلفة للجواب عن هذه القضية العويصة فهناك من يدعوا إلى توظيف العامية فقط كما فعل عبد الرحمان الشرفاوي في روايته "الأرض" وهناك من يدعوا إلى تفصيح الرواية "19 ومن المنادين بتفصيحها الدكتور عبد المالك مرتاض الذي يقول " إن الكتابة الروائية عمل فني جميل يقوم على نشاط اللغة الداخلي ولا شيء يوجد خارج تلك اللغة وإذا كانت غاية بعض الروائيين العرب المعاصرين هي أن يؤدوا اللغة -ليس بالمفهوم الفني ولكن بالمفهوم الواقعي للإيذاء -بتسويد وجهها وتلطix جلدها و إهانتها بجعل العامية لها ضرة في الكتابة ... فلم يبق للغة العربية إلا أن تحزم حقائبها وتمتطي ركائبها ، وتمضي على وجهها سائرة في الأرض لعلها أن تصادق كتابا يحبونها من غير بني جلدتها "20

وتبدو الحجج المقدمة من طرف دعاة العامية كالصدق الفني والواقعية والاهتمام بالمتلقي واهية ، فأين الصدق الفني وأين الواقعية حين تكتب عن مجتمع غربي باللغة العربية إذ أن الصدق يستوجب استعمال اللغة المجتمع المتناول في الرواية وأما المتلقي فهو جمهور على الأقل متعلم ليستطيع القراءة إن لم نقل صفوة المجتمع

الذين يمارسون القراءة في أيامنا هذه والمشكلة العويصة في العامية إن تحدثنا عن الجرائر مثلاً في اختلاف اللهجات العامية ناهيك عن الدول العربية الأخرى، فحرم جمهوراً واسعاً من القراءة إن كتبنا بالعامية وتعدو الرواية محلية .

يهتم الفن أي فن بالمجتمعات من حيث تفكيك العلل وطرح العلاج أو تنمية الذوق وتصحيحه ومنه فإن تدني الفنون في المجتمعات المنحطة نزولاً عند مستوى المتلقي بتقديم عذر أقبح من ذنب خاصة اللغة العربية لغة القرآن التي يجب التحدث بها في المجتمعات العربية المسلمة .

تلعب اللغة دوراً أساسياً في تشكيل الرواية التي هي في الأساس لغة مكتوبة على الورق ولكن اللغة الروائية ليست أي لغة إن هي الجسم والروح معا فيها ومنها يصاغ الزمن والمكان والحدث والشخصيات الروائية.

الهوامش

- 1 - محمد شاهين : آفاق الرواية - البنية و المؤثرات دراسة - اتحاد الكتاب العرب ص 07.
- 2 - جميل حمداوي: مستجدات النقد الروائي : ط 1 ، 2011 ص 11.
- 3 - عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت 1988 ص 12.
- 4 - أنظر جميل حمداوي : م س ص 13 بتصرف.
- 5 - م ن ص 14.
- 6 - جورج لوكاش: نظرية الرواية تر : الحسين سحبان منشورات التل الرباط المغرب ط 1 1988 ص 141-142.
- 7 - م ن ص 145.
- 8 - سيد البحراوي : علم اجتماع الأدب : الشركة المصرية العالمية للنشر القاهرة مصر ط 1 1992 ص 26.
- 9 - لوسيان كولدمان و آخرون : الرواية و الواقع تر : رشيد بنحدو عيون المقالات الدار البيضاء المغرب ط 1 1988 ص 36-61 .
- 10 - دارين أوستن و وليك رينيه " نظرية الأدب " تر : محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب و العلوم الاجتماعية : دمشق 1973 ص 281.
- 11 - هو غراهام : مقالة في النقد : تر : محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب و العلوم الاجتماعية دمشق 1973 ص 136.
- 12 - أنظر ميخائيل باختين : الكلمة في الرواية : تر : يوسف حلاق وزارة الثقافة دمشق 1988 ص 13.
- 13 - ميخائيل باختين : الخطاب الروائي : تر : محمد برادة ، دار الأمان الرباط ط 2 1987 ص 11.
- 14 - أبو الحسن بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة : تح : عبد السلام هارون : دار الجيل بيروت ص 453.
- 15 - أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور : لسان العرب ج 14: دار صادر بيروت ص 347.
- 16 - بن جلون عبد المجيد : نظرات في القصة : المناهل العدد 1 سنة 1974 ص 37.
- 17 - الحلاق بطرس : نشأة الرواية بين النقد و الايديولوجية - في الرواية العربية واقع و آفاق ، دار ابن رشد للطباعة و النشر لبنان 1981 ص 17.
- 18 - عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية : م س ص 32.
- 19 - جميل حمداوي : www.Arabiancreativity.com/J-hamdaoui.htm
- 20 - عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية : م س ص 106.